التأويل ولغة الشعر

قراءة في شواهد لابن جني في شرحه لشعر المتنبي

Interpretation and language of poetry
Reading in evidences of Ibn Jenni in his explanation of Mutanabi poetry

الدكتورة: حليمة بلوافي *
halimabelouafi2018@yahoo.com
المركز الجامعي بلحاج بوشعيب – عين تموشنت (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/08 تاريخ القبول:2019/05/17 تاريخ النشر: 2019/06/07

ملخص البحث :

إن المبدأ العام الذي قامت عليه جهود ابن جني اللغوية ، هو التقعيد للغة المتداولة التي يوظفها أهل الإبداع من الكتاب والشعراء ، وذلك لقناعته أن اللغة إذا بقيت حبيسة القواعد المعيارية الصارمة ،فإنها –لا محالة – ستفقد كثيرا من حيويتها في التعبير عن المعاني الحديثة والحِكم العميقة ، ولذلك فإن للغة أسرارا وجب الكشف عنها – في رأي ابن جني – والذي سماها في مقدمة كتابه " الخصائص " بالحكمة ،ورأى أن التوظيف اللغوي في الشعر يتجاوز التقدير النحوي ، ويحدث عدولٌ عن الاستعمال المألوف للكلمة ،وذلك بواسطة الانحرافات ولطف المقاصد والتلفت والتثني وما إلى ذلك مما سيبينه ابن جني في شرحه للشعر.

الكلمات المفتاحية: النقد اللغوي – التأويل –ابن جني – المعايير – المعنى والدلالة –نقد النقد.

Abstract: The general principle upon which Ibn Ghani's linguistic efforts were based is the encroachment on the common language employed by the creative people of the writers and poets because he believes that if the language remains rigidly bound by standard rules, it will inevitably lose its vitality in the expression of modern meanings and deep judgment , And therefore the language of the secrets must be disclosed - in the opinion of Ibn Jeni - which he called in the introduction to his book**'El khasais ' The characteristics**" wisdom, and saw that the recruitment of language in poetry exceeds the grammatical appreciation, and occurs to turn off the familiar use of the word, by deviations and kindness of purposes, That's what Si Binh ibn Jnei in his explanation of poetry.

Keywords: linguistic criticism - interpretation – Ibn jenni - norms - meaning and significance – criticism of criticism.

البحث :

إن التأسيس للغة الشعرية التي أحدثها المولِّدون ، قاد ابن جني إلى إرساء منهج في شرح الشعر ونقده ، خاصة عند المتنبي ،يقوم على مبدأ التأويل الذي يُخضع الشاهد الشعري للمعنى الذي يتصوره الشارح ، وبالتالي ، وطلبا لذلك ، يوظف كل إمكانات التأويل ومفاتيحه لكي يتطابق التصور مع الشاهد الشعري .

إنّ الهدف الدقيق والأسمى الذي كان يود تحقيقَه ابن جني ، هو بيانُ بلاغةِ اللغة العربية وأسرارِها في التعبير والإنشاء ، ولذلك نجده في كتبه على تنوّعها وكثرتها يحاول أن يُبرزَ فضائل هذه اللغة سواء في مظاهرها النظرية في الصرف والنحو والبلاغة والصوت ، أو في تطبيقاتها الإجرائية في استعمال تلك التنظيرات في القول الإبداعي ، الشعري والنثري .

وما كان يهم ابن جني هو الجانب العلمي لهذه اللغة ،ولذلك نجده يتتبع اطرادات الاستعمال اللغوي في الشعر خاصة ، فلم يعير اهتماما كبيرا للناحية الجمالية للغة الشعرية حين تناول شعر الحماسة أو شعر الهذليين أو شعر أبي الطيب المتنبي ، وإنما ما راعه هو الجانب العلمي لهذه اللغة في اتساعها للمعاني الذهنية التي طرب لها ابن جني في شعر أبي الطيب المتنبي —مثلا — أكثر من طربه لجمال التعبير وبلاغة الإنشاء ،فابن جني عالم وهمّ العالم هو تجريد الحقائق التطبيقية في صورة قواعد عامة تصلح أن تكون قانونا مطّردا .

فابن جني معروف عنه أنه يترك المعنى القريب ويذهب إلى المعنى البعيد ، وقد سجّل ابن معقل الأزدي(ت 644) ملاحظاته حول شرح ابن جني لديوان المتنبي ، واقفا على المنهج الذي سلكه الشارح وبيّن في كتابه " المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي " أفضلية ابن جني في الإبانة عن غوامض شعر المتنبي ، وقد وجّه ابن معقل مؤاخذاته على خمسة شراح هم :ابن جني في الفسر ،والمعري في معجز أحمد ،والتبريزي في الموضح والكندي في الصفوة والواحدي في شرح ديوان المتنبي[1] ، وما يهمنا هو تناوله بالثناء والتمجيد لما قام به ابن جني من إزالة الإشكال عن كثير من أبيات المعاني المستغلقة على الفهم ،والمحتملة لأكثر من وجه من وجوه التأويل وقد ذكر ابن معقل خصائص منهج ابن جني ولخّصه فيما يأتي :

- اتخاذُه الشواهد الشعرية والنثرية للتدليل على غريب اللغة ،ثم يطبق على تلك الشواهد القاعدة التي يريدها والتفسير الذي يراه .
- حياده عن الظاهر الحسن إلى الجافي البعيد الغريب لبيت نادر يقع عليه فيعول في الشرح على ذلك البيت ، ميلا للإغراب وتركا للصواب .
- إعماله للتأويل الذي يجعل المعنى غريبا أمام البيت الواضح .

فابن جني ، بإرسائه لهذا المنهج في الشرح والنقد ، يريد أن يؤسس لعلم كتابة جديد ، متحرر من سلطة النصوص القديمة ، ومن المعيارية التي أفرزتها هذه النصوص والتي غدت موانع لدى النقاد القدامى ،بحيث لا يسمحون لأي محدث باختراقها ، أو تجاوزها ، فاللغة لا تقول دائما بألفاظها ، وإنما قد تغني الإشارةُ عن العبارة ، وقد يختفي المعنى داخل التركيب ، و يلُتَبس في تحديده ،وما ذلك إلا بسب ما يكتنفه من الغموض في التعبير ، يقول عبد العزيز عتيق :"**وربما نشأ الغموض والإبهام من صعوبة الوصول إلى المعنى الذي أراده الشاعر ، فقد يكون البيت سليم النظم من التعقيد ، بعيد اللفظ عن الاستكراه ، لا تشكل كل كلمة فيه بانفرادها على أدنى العامة ،ومع ذلك لا يعلم مراد الشاعر** "[2] وترجيحه يشرح ابن جني دور التأويل في الكشف عن المعنى فيقول :"**فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو وابن أبي إسحاق ويونس وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه وأبو الحسن وأبو زيد وخلف الأحمر والأصمعي ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما**

في أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه غير متهم الرأي والنحيزة والعقل."[3]

وبالمنهج التأويلي نفسه ،الذي نظر ابن جني من خلاله إلى أشعار المولدين ، رجع لقراءة بعض الأشعار والشواهد التي شاع شرحها عند القدامى ، ولم يتركوا في شرحها زيادة لمستزيد ،إلا أن ابن جني قلّب النظر في هذه الشواهد ، وتأملها ببصيرة نافذة ، وتجاوز بنيتها السطحية التي لا تنبئ على كثير معنى ، إلى بنيتها العميقة ، فرأى أن المراد ليس عبارة الشاهد الشعري وإنما إشارته إلى معاني أخرى غائرة ، لا يدركها إلا ذو نظر دقيق .ينقل ابن جني الشاهد الشعري الذي يقول فيه صاحبه :

ولَمّاَ قَضَينَا منْ مِنَنْ كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

أخَذْنَاَ بأَطْرَافِ الأَحاديثِ بيننَا وسَالتْ بأعْنَاقِ المطيّ الأباطحُ

ينقل ابن جني رأي النقاد الذين رأوا أن الشاهد لا يسجل – هاهنا –إلا تنميقا للألفاظ ، وزخرفة للنسج ، أما المعاني فليست ذات أهمية فيقول ابن جني :**فإن قلت: فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه وزخرفوه ووشوه ودبجوه ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لا نجد قصداً ولا مقارباً ألا ترى إلى قوله: ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ومائه وصقاله وتلامح أنحائه ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه: إنما هو: لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل. ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضتها."**[4]

فيعلّق ابن جني على من رأى هذا الرأي ، واكتفى بعبارة الشاهد وغفل عن إيحاءاته وإشاراته، بأنه قاصرُ نظرٍ فيقول :"**قيل: هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما أراه القوم منه وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق.** "[5]ويسترسل ابن جني ، بعد ذلك ، في بيان الوجوه الأخرى للشاهد الشعري ،معمِلا أداة التأويل ،آخِذا بالقرائن اللغوية لصرف المعنى ،فقراءةٌ للمكان (مِنن) ليس باعتباره مكانا للحج ثم المغادرة إلى الديار ، وإنما يعقد حوله ابن جني جملة من العلائق التي لا تخطر إلا على ذي لب حصيف .يقول ابن جني في ذلك :وذلك أن في قوله " **كل حاجة " ما يفيد منه أهل النسيب والرقة وذوو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم ألا ترى أن من حوائج منن أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها لأن منها التلاقي ومنها التشاكي ومنها التخلي إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به.** "[6]ويربط ابن جني بين مصراعي البيت ،محققا انسجام التركيب الشعري ، وملفتا النظر ،إلى ضرورة تلازم شطري البيت لتحقيق الفهم الصحيح للمعنى ، أما شرح البيت شرحا مفرداتيا فإنه يُذهب كثيرا بدلالته ، ذلك أن الشاعر يومئ للمعنى ولا يصرح ، ويذكر في شعره نماذج من العناصر اللغوية بها يتعرف القارئ /الناقد على حقول أخرى هي أوسع وأرحب .يشرح ابن جني ذلك بقوله : "**وكأنه صانع عن هذا الموضع الذي أومأ إليه وعقد غرضه عليه بقوله في آخر البيت: ومسح بالأركان من هو ماسح أي إنما كانت حوائجنا التي قضيناها وآرابنا التي أنضيناها من هذا النحو الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به**

وجار في القربة من الله مجراه أي لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح." [7]

ويكشف ابن جني ، بأسلوب شرح متميّز فحوى البيت الثاني ، ويفيض في بيان روعته وحسن ديباجته ، ضاربا أمثلة عن رجاحة تخريجه لدلالة هذا البيت ، (فأطراف الأحاديث) ليس كما شرح النقاد القدامى بتجاذب الحديث على ظهور الإبل ، وإنما يرى ابن جني ، أن الصيغة تحمل إيحاء أعمق. فيقول شارحا : **"وأما البيت الثاني فإن فيه: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه ووضع من معناه. وذلك أن قوله " أطراف الأحاديث " وحياً خفياً ورمزاً حلواً ألا ترى أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهراً وإذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم وأشد تقدماً في نفوسهم من لفظهما وإن عذب موقعه وأنق له مستمعه."** [8] إذن فالمقول الشعري – كما يراه ابن جني – ليس في ملاحظة معاني مفرداته ، ولا في تفسيرها تفسيرا معجميا ، وإنما في قراءته قراءة منسجمة ، تأخذ المعطى اللفظي جسرا لاستكناه الدلالة ، وربط معانيه بعضها إلى بعض حتى يتضح المغزى ، ذلك أن الوحدات الشعرية – في رأي ابن جني – تشرع بعضها بعضا ، وتقوم مجتمعة بمعنى المقول الشعري العام والدقيق .

ومن الطرق التي أعملها ابن جني في تأويله للشواهد الشعرية ،طريق الاستبدال بين الوحدات الشعرية ، فإذا كان من الجائز أن تقوم الإشارة مقام العبارة فمن باب أولى قيام العبارة مقام العبارة ، ينقل ابن جني أمثلة عن التأويل بالاستبدال فيقول :**"وإذا جاز أن يقوم الحال مقام اللفظ بالفعل كان اللفظ بأن يقوم مقام اللفظ أولى وأجدر. وذاكرت المتنبي شاعرنا نحوا من هذا وطالبته به في شيء من شعره فقال: لا أدري ما هو إلا أن الشاعر قد قال: لسنا كمن حلت إياد دارها البيت. فعجبت من ذكائه وحضوره مع قوة المطالبة له حتى أورد ما هو في معنى البيت الذي تعقبته عليه من شعره.واستكثرت ذلك منه.**

والبيت قوله:

وَفاَؤُكمَا كالرَّبعِ أشْجاهُ طاسمُه بأنْ تسْعدا والدَّمعُ أشْفاهُ ساَجِمُه

ذكرنا ذلك لاتصاله بما نحن عليه فإن الأمر يذكر للأمر. " [9] كما أن ابن جني يتّكئ كثيرا على القرينة النحوية في شرح البيت وتأويل معناه ،بل وتبرير ما اعتُبر لحنا مخلاً بالقاعدة النحوية ، ويعطي ابن جني من خلال هذا التأويل رأيه النحوي في مسائل خلافية ، مرجحا رأيه بإعادة ترتيب عناصر البيت بكيفية يتضح من خلالها المعنى المراد والمطلوب من الشارح . يقول ابن جني وهو يشرح شاهدا شعريا يقول فيه صاحبه:

همُا خطتَا إما إسارٍ ومنةٍ وإما دمٍ والقتلُ بالحُرِّ أجدرُ

"ففصل بين خطتا وإسارٍ بقوله إما ونظيره هو غلام إما زيد وإما عمرو.

وقد ذكرت هذا البيت في جملة كتابي في تفسير أبيات الحماسة وشرحت حال الرفع في إسار ومنة.

ومن ذلك قوله: فَزَجَجْتُهاَ بمَزجَة زجِّ القَلوصِ أبِي مُزادَه،

أي زج أبي مزادة القلوص.

ففصل بينهما بالمفعول به. هذا مع قدرته على أن يقول: زج القلوص أبو مزادة كقولك: سرني أكل الخبز زيد. وفي هذا البيت عندي دليل على قوة إضافة المصدر إلى الفاعل عندهم وأنه في نفوسهم أقوى من إضافته إلى المفعول ألا تراه ارتكب ههنا الضرورة مع تمكنه من ترك ارتكابها لا لشيء غير الرغبة في إضافة المصدر إلى الفاعل دون المفعول."[10]

وما تجدر الإشارة إليه ، هو أن مبدأ التأويل ،اعتمده كثير من النقاد القدامى ، في عصر ابن جني ،فأولوا معانٍ لم يبح بها سطح الشاهد الشعري ، من أولئك النقاد القاضي الجرجاني ،الذي يبحث عن المعنى البعيد في البيت الشعري من خلال تقريره للمعنى القريب ، بل إنه ليقلب المعنى من النقيض إلى النقيض ففي شرحه للبيت الشعري الذي يقول فيه صاحبه :

فَجُنِّبْتَ العَوَارَ أبا زُنَيْب وجادَ علَى مَحَلّتِك السّحابُ

يقول :"**من يسمع هذا البيت يظنه دعاء لأبي زينب واستسقاء لأرضه ، وإنما مراد الشاعر الدعاء عليه أن يهلك الله إبله فلا يملك منها ما يُعار عليه ، وأن تجود السحاب على أرضه وهو مملق ، فيشتدّ أسفه على ما ذهب من ماله إذا رأى الأرض مخصبة وسائمة الحيّ راعية ."[11]**

إن مبدأ التأويل عند ابن جني ، يمثل أساس بعث اللغة ببيان خصائصها في التعبير ، وباتساع معانيها للدلالات العميقة ، فالمجاز لا ينكشف إلا بالتأويل ، كما أن المغايرة اللغوية التي ينبني عليها المقول الشعري لا تنسجم مع الفهم إلا بإعادة كتابتها بتأويل اتساقها ، وترتيب عناصرها .

إن المنحى الاتساعي في اللغة شكَّل عند ابن جني أساسَ البحث في جوهر هذه اللغة ، فلم يكتف ببيان وجوه صرف المعنى في الشاهد الشعري ، وإنما تراه يسند الشاهد بأمثلة من القرآن الكريم ، والأقوال المأثورة ،يبين من خلال ذلك دور القرائن اللغوية والسياقية والذهنية في تمديد حقل اللفظ – مثلا – ليشمل معاني أخرى توكيدا للوظيفة الإيحائية للغة ، وفتحا لآلية التأويل في استكناه عمق النص لاستنباط الدلالة .

ولربما من حظ ابن جني، المتطلِّع إلى التحديث في آليات التعبير اللغوي ، أنْ عاصرَ شاعرا توّاقا إلى تفجير طاقات اللغة الكامنة ،وتطويعها لتستجيبَ لمنطقه الخاص في الرؤية للوجود ،فاجتمع العالمان :ابن جني ، المنظِّرُ للغة المقعِّدُ لوظائفها، والمتنبي ،المطبِّقُ لإجراءات جديدة في التعبير ، اعتُبِرت في زمنها حداثة لغوية.فلقي كلٌّ منهما نفسه في الآخر ؛ ابن جني الشارح المبيِّن لغوا مض شعر المتنبي ولشوارد معانيه ، والواجد لطموحاته العلمية مرتَعا لها في نصوص المتنبي المكتنِزة بالمعارف، والشواهد الحيّة على غنى اللغة وثرائها اللامحدود ، والمتنبي الشاعرُ المبدعُ في قوالب اللغة ،المتحرِّرُ من قيود التعبير القديم ، الباحثُ عن متلقٍّ نموذجيٍ يتفهّم معاني شعره ويُفهِمها للناس، ويشرح لهم ما لم تستطع أبياتُ شعره التصريحَ به ،والملتمِسُ الأعذار العلمية عن جوازات شعرية خرج بها عن مألوف التعبير العربي ، وتخطى من خلالها قيود النحو، من أجل أن يتجلّى المعنى في أعظم صوره ، وأقوى تأثيره، خاصة ما تعلق منه بالمعنى الذهني .

هذه التقاطعات العلمية البارزة في مسار ابن جني العلمي ، ستتبلور في شكل مداخل نظرية ، سيحاول من خلالها تقديمَ إطارٍ نظريٍ بارز المعالم حول الأسس العامة ، التي تنبني عليها اللغة في الصناعة الشعرية ،وهو ما يكاد يحوي عليه كتاب"الخصائص " الذي تفيدنا المصادر التاريخية، أنه آخر ما ألَّف ابن جني من الكتب وضمّنه خلاصة تجربته العلمية والنقدية مع النصوص والمتون الشعرية والنثرية[12]، والتي كان يروم من خلالها بعث لغة تتَّسع لكل المعاني سواء في تعبيراتها الحقيقية أو في إيحاءاتها المجازية ،وهو ما وجد له صدى واضحا في أشعار المحدَثين من أبي تمام والمتنبي وغيرهما، وهذا التحديث الإبداعي في اللغة، أو العلمي النظري، لقي صداً عنيفا من قبل المتشبثين باللغة التقليدية التي تحترم سنن عمود الشعر العربي، وبالشدّة نفسها التي تعرض لها المتنبي من قبل النقاد واللغويين، لقي ابن جني إعراضا من قبل الشراح والنقاد ، وألصقوا به تهما لعل أبرزَها ميلُه لشعر المتنبي سعيا منه لخدمة مذهبه النحوي واللغوي، الذي كان يجمع فيه بين المذهبين البصري والكوفي ،وهو ما عُرِف عند اللغويين بالمذهب البغدادي .

هوامش البحث :

- **الدكتورة حليمة بلوافي من مواليد 1978 أستاذة النقد العربي القديم بالمركز الجامعي لعين تموشنت ،بالجزائر ، وهي أستاذة محاضرة ،لها مجموعة من المقالات الدولية والوطنية المنشورة ،كما لها اسهامات علمية في ملتقيات وندوات علمية لها كتاب :النقد اللغوي القديم عند العرب – قراءة في الأدوات والمنهج ،الصادر سنة 2016 عن دار الكتب العلمية ببيروت – لبنان .**

1. –أنظر: المآخذ على شراح ديوان المتنبي: أبو العباس احمد بن علي بن معقل الأزدي : ج2ص251 تحقيق عبد العزيز المانع – الرياض 2001.
2. –عبد العزيز عتيق :في النقد الأدبي ص143-144- دار النهضة العربية – ط2- 1972.
3. المرجع السابق ص121.
4. **ابن جني (أبو الفتح عثمان):الخصائص** ج1ص 23 **تحقيق :محمد علي النجار –ط 3 –**1978**– دار الكتب المصرية – القاهرة .**
5. المصدر السابق ص231.
6. المصدر نفسه ص232.
7. المصدر نفسه ص232.
8. المصدر نفسه 233.
9. المصدر نفسه ج 1ص153.
10. المصدر نفسه ج2ص243.
11. عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ص312 تحقيق أبو الفضل إبراهيم والبجاوي – ط3– دار إحياء الكتب العربية القاهرة -1985.

– 12- انظر أضواء على آثار ابن جني في اللغة المطبوعة والمفقودة. لغنيم بن غانم الينبعاوي ص16 –الطبعة الأولى – 1999-جامعة أم القرى – السعودية .